

## الأسرى والرهبان والقراصنة والإرهابيون: حوض المتوسط والخطاب السياسي عبر العصور

بقلم مادلين دوبي

ترجمة عصام الشحات

تستحضر فكرة "هجرة الأفكار" تداول المفاهيم وتقلها من مكان إلى آخر عبر الأزمنة، وبالتالي تحولات المعاني التي تتعرض لها تلك المفاهيم عند عبورها للحدود الثقافية أو السياسية. لكن تلك الحدود والبلدان أو المناطق التي ترسمها هي نفسها حدود معنوية وغير مستقرة. فتقسيم العالم إلى مناطق أمر يتغير بتغير الأزمنة ويتبع متغيرات عديدة. فإن كانت المفاهيم تعبر الحدود، فإن هذه الأخيرة تتحرك أيضاً، ليس فقط بفعل الزمن، بل كذلك وفق مجالات البحث، فاتجاهات الأبحاث ترسم خريطة مختلفة للعالم، فتعترف بخطوط التقسيم المختلفة.

وقد تعرضت الجغرافية المعنوية للبحر المتوسط بشكل خاص إلى تحركات وتحولات في مدّ وجزر خلال العصور المختلفة. فعلياً إن طرح بعض الاستفسارات حول فكرة حوض البحر المتوسط، وكذلك حول عدد من الأفكار الملحقة بها والمفاهيم البديلة.

\*\*\*

لقد كان لفكرة حوض المتوسط بوصفه مساحة ثقافية شعبيتها خلال عهود مختلفة منذ سنوات العشرينيات، ويتحدث نقاد هذا المفهوم عن تيار "حوض متوسطي" في مقارنة مع تيار "الاستشراق" مثلما عرّفه ادوارد سعيد<sup>1</sup>.

لكن الخطاب المتوسطي خطاب متعدد في الواقع، ومن الملائم أكثر الحديث عن تيارات متوسطية، بصيغة الجمع. في بعض الحالات، هناك إصرار على الوحدة البيئية والاجتماعية والثقافية لمنطقة حوض البحر المتوسط، مما يستدعي خلق منطقة متجانسة غيرية على محيط أوروبا. يأخذ الباحث في علم الأجناس الأمريكي مايكل هرزفيلد، وهو من أشد المنتقدين لمفهوم المتوسطية، يأخذ على زملائه تأكيدهم على الأشكال النمطية حول البحر المتوسط، كالقول إن الثقافة المتوسطية قائمة على مزيج من المعايير الأخلاقية والخجل، أو أنها تسير بين التقشف والشهوانية، بدل أن يقوموا بتحليل إنتاج تلك الأفكار المتلقاة وكيفية نشرها<sup>2</sup>. وتقول المؤرخة جوليا كلانسي سميث إن تقديم شعوب البحر المتوسط على أنهم يشكلون جماعة متجانسة مختلفة عن شعوب أوروبا الشمالية، يعود إلى القرن التاسع عشر وأنه مرتبط بترويض الإنسان للبحر بخاصة بعد اختراع السفينة البخارية<sup>3</sup>. فقد بدأ الرحالة والمراقبون الأوروبيون منذ

ذلك العصر يصفون تلك الشعوب البدائية ويعلقون عليها، مشيرين إلى العلاقات العائلية والاجتماعية الفاسدة (المحسوبية وخضوع النساء وتعدد الزوجات)، إضافة إلى المكانة العليا التي يحتلها الدين. وتقول كلانسي سميث أن التمييز العرقي ضد "العرب" خلال العقد الأخير من القرن في إطار السياسة الاستعمارية قد أدى إلى استبعادهم من فئة شعوب البحر المتوسط. فقامت علاقة تراتبية غيرية، يحتل فيها المسلمون أسفل السلم. والعملية التي جرى ذلك في إطارها معروفة: فادعاء وحدة بعض المجموعات البشرية يستدعي إقصاء جماعات أخرى.

لكن، إن كان مفهوم المتوسطية قد ساهم في بناء منطقة غيرية على تخوم أوروبا، فقد تمت الاستفادة منه، في أوقات أخرى، لغايات مختلفة جذرياً أي لتأكيد صلة القرابة بين أوروبا الغربية والعالم القديم اليوناني أو اللاتيني، أو لخلق وشائج ضمن إطار إمبراطورية استعمارية ما. ولم تغب هذه الازدواجية لمفهوم المتوسطية عن الخطاب النقدي. فقد لاحظ هرزفيلد مثلاً أن حوض المتوسط، مثله مثل غيره من الفئات الجغرافية الثقافية [culture area concepts] مكان ملائم لإنتاج النماذج النمطية وإعادة إنتاجها. لكنه يشير كذلك إلى أن الأنماط المتوسطية لا تشبه كثيراً الخطاب حول الآخر مثلما كتبه ادوارد سعيد بقدر ما تشبه مجموع من "الممارسات" أو "الاستراتيجيات" متعددة الأطراف<sup>4</sup>. وفي هذا النموذج، تقوم البلدان "المتوسطية" بالتأكيد على "انتمائها" إلى هذا الحيز الجغرافي الثقافي عندما يصب ذلك في مصالحها السياسية والاقتصادية والثقافية<sup>5</sup>.

في السياق الفرنسي، بلغت صيحة المتوسطية أوجها في ثلاثينيات القرن العشرين. فقد التفت في ذلك العصر الكثير من المفكرين والكتاب إلى منطقة البحر المتوسط دعماً لنظريات جديدة قادرة على التغيير. فنادى فرناند بروديل، وهو من مؤسسي مدرسة *Annales*، إلى الوحدة البيئية لمنطقة حوض المتوسط لدعم براهينه حول التاريخ الاجتماعي الاقتصادي ذي المنحى بعيد المدى، ضد تاريخ "حادث" سياسي أو دبلوماسي يصفه بالسطحي<sup>6</sup>. وفي إطار تعليمي آخر تطرقت عالمة الإنسانيات جرمين تيليون، وكانت من المعارضين علانية للنازية، إلى الوحدة الإنسانية للمتوسط في دراستها بعنوان *Le Harem et les cousins* [الحرملك وأولاد العمومة]<sup>7</sup>. وقد رفضت تيليون التناقضات القائمة بين الضفة الشمالية والضفة الجنوبية للمتوسط وبين الإسلام والمسيحية، معتمدة على مقولات أستاذها مارسيل موس في الإنسانيات الاجتماعية وعلى النظريات الجديدة المشابهة، مشيرة بالأحرى إلى أوجه التشابه على مستوى الوضع الاجتماعي للمرأة وعادات الزواج. وقالت تيليون إن ارتداء الحجاب وحبس النساء ليس حكراً على

الإسلام. كما أشارت إلى تناقض هذه الممارسات التي تعتبرها ذات علاقة بحقوق الميراث التي تتمتع بها النساء في ثقافات منطقة حوض المتوسط.

لم تتم دراسة وجهات النظر هذه حول وحدة حوض المتوسط، وبوسعنا الاستشهاد بالمزيد من الأمثلة منها ما كتبه بول فاليري الذي عُين سنة 1933 رئيساً للمركز الجامعي الجديد في نيس، ضمن السياق التاريخي للوجود الفرنسي على ضفتي المتوسط، أي ضمن إطار الإمبراطورية الفرنسية. فشخص مثل بروديل مثلاً، معترف له بالإبداع في كتابة التاريخ وهو من الرواد في مجال التاريخ الاجتماعي الاقتصادي وفي التقريب بين التاريخ والجغرافيا، ومع ذلك نادراً ما توضع أعماله في إطار الخطاب الاستعماري رغم أنه أمضى العشر سنوات الأولى من مسيرته المهنية مدرساً في الجزائر (من سنة 1923 حتى سنة 1932)، في ثانوية قسنطينة. وفي كتابه المرجع، *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*، يؤكد بروديل على وجه التقارب بين مارسيليا ومدينة الجزائر اللتين لا تفصل بينهما سوى مسافة 740 كم وأن اختلاف معدل الحرارة بينهما لا يتجاوز 4 درجات في المتوسط. فأوجه التشابه والانتماءات بين ضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية، تخفف، بحسب بروديل، من صدمة اللقاء الاستعماري. ويشير إلى الاختلافات بين استعمار الأمريكيتين واستعمار البحر المتوسط مؤكداً أنه في الحالة الأخيرة "الاستعمار... يعني أن نملك الأشجار نفسها، والنباتات نفسها، وأن نتمتع بالمناظر نفسها... ونتناول الأطعمة نفسها"<sup>9</sup>. لكنه أثناء كلامه عن الاستعمار من وجهة نظر "المستعمر"، أو ذلك الأوروبي على سبيل المثال المقيم في شمال أفريقية، لا يأخذ بعين الاعتبار الإحساس الواقعي بالغرابة الذي يلمسه ابن البلد "المستعمر". لكن مفهوم المتوسطية في ثلاثينيات القرن قد تبنته أيضاً مجموعة من المفكرين تعتبر الرهانات الاستعمارية أمراً بديهياً، مثل الكتاب المنتسبين إلى "مدرسة الجزائر". ففي الجزائر في ذلك العهد، كان مفهوم الثقافة المتوسطية يجتذب أولئك الساعين إلى تجاوز الشرخ الاستعماري وإلى إيجاد منابع الوحدة لدى سكان البلاد متعددي الأعراق. ضمن هذا المنحى، تأسست عدة مجلات وسلاسل كتب، منها مجلة ضفاف *Rivages* (1938-1939) ومجلة المتوسط *Revue de la Méditerranée* التي أسسها مؤرخ الفن في جامعة الجزائر، جان أليزارد. وأسس الناشر إدموند شارلو سنة 1936 سلسلة "المتوسطية méditerranéenne"، ونشر فيها أعمالاً لألبير كامو ورينيه جان كلو وغابرييل أوديسيو، وآخرين. ولكن، إن كان القاسم المشترك بين هؤلاء المثقفين هو موقفهم الناقد للنظام الاستعماري، فإن مفهومهم عن "المتوسط" يبقى محدوداً فهو لا يتعدى في جوهره اجتماع الثقافات المختلفة لأوروبا الجنوبية مع شمال أفريقية. قدم غابرييل أوديسيو في كتاباته في ثلاثينيات القرن الماضي، وجهة نظر حول البحر المتوسط مناقضة لوجهة نظر الجيل الذي سبقه<sup>10</sup>. فقد رفض أوديسيو فكرة المتوسطية

"اللاتينية" التي نادى بها لويس بيرتراند، وهي رؤية ترانثبية لشعوب المتوسط تكاد تقترب من الرؤية الفاشية الإيطالية<sup>11</sup>، وكان يشدد على تمازج شعوب البحر المتوسط لا سيما فيما يتعلق بالسكان الهجينين في الجزائر. إنما كان من المحتوم أن تطرح الثقافة واللغة العربيتين ومكانتهما في ذلك المزيج إشكالاً فيما بعد، وانتهى الأمر بأوديسيو أن ادعى أن اللغة العربية أجنبية عن الجزائر تماماً كاللغة الفرنسية وأن اللغة الوحيدة التي بوسعنا نعتها بالأصيلة هي اللغة الأمازيغية<sup>12</sup>. فصار مفهوم المتوسطية، الذي كان أوديسيو يمجده رسالته العالمية، في ذلك السياق وسيلة لتجنب تشكيل هوية جزائرية أصيلة. ونرصد ديناميكية مماثلة في كتابات ألبير كامو. فقد ألقى محاضرة بمناسبة افتتاح بيت الثقافة في مدينة الجزائر سنة 1937، بعنوان "الثقافة المتوسطية، والثقافة المحلية الجديدة"، قارن بين إيدولوجية البحر المتوسط "اللاتينية"، المحسوبة على اليمين الفرنسي والإيطالي، وبين المتوسطية "اليونانية" المنحازة إلى جانب اليسار<sup>13</sup>. لكن الرهان الأكبر بالنسبة لكامو كان صبغ الجزائر الفرنسية بصفة نواة الثقافة المتوسطية، بل والنواة الأولى. فأعلن ضمن هذا المنظور أن شمال إفريقية هي البلاد الوحيدة التي يلتقي فيها الشرق مع الغرب وكان يحتفي بهذه الهجينية الناجحة. كان كامو يتجنب الخوض في مسألة التراتبية الاستعمارية، ولكنه تجنب، بالقدر الذي فعله أوديسيو، الاعتراف من قريب أو من بعيد بأن العنصر العربي هو أحد مكونات الهوية الجزائرية. فتنبنى فكرة حوض المتوسط ليس فقط ليوواجه "ثنائية المجتمع الاستعماري العنصرية"، ولكن أيضاً لإنكار وجود هوية جزائرية محددة. وقد أعاد، في محاضراته، تكييف المصطلح الاستعماري المعبر عن فئة "السكان الأصليين"، الذي كان يدل تاريخياً على "العربي" أو على "المسلم" (أما بالنسبة إلى يهود الجزائر، فقد اعتبرهم مرسوم Crémieux لسنة 1870 "مواطنين" فرنسيين) للدلالة على "نوي الأصل المتوسطي". وبهذا، أصبح الرعايا الإسبان والإيطاليين والمالطيين والفرنسيين، يعدون من "السكان الأصليين" وتم مسح عنف النظام الذي قسم السكان إلى مواطنين وسكان أصليين. إن في عدم تمكن كامو من رؤية الجزائر سوى كمجتمع هجين الهيمنة فيه للعنصر الفرنسي-المتوسطي، تفسير لرفضه الانضمام إلى صفوف جبهة التحرير الوطنية أثناء حرب الاستقلال. وقد استمر في آخر مقالة كتبها حول الجزائر، *Algérie 1958*، في إنكار وجود أمة جزائرية ونبّه إلى خطر صعود التأثير الروسي أو المصري في المنطقة<sup>14</sup>. فإن كان كامو قد دعم فكرة المتوسط الروماني الفرنسي في ثلاثينيات القرن ضد الطموحات الإيطالية والألمانية، فقد أعاد استخدام تلك الفكرة في نهاية الخمسينيات ضد الشيوعية السوفيتية والقومية العربية. وكان لتصريحاته صداها على الصعيد السياسي وظهر تأثيرها على خطاب فرانسوا ميتران وكان وقتها وزيراً للداخلية، الذي أشار بداية الأزمة الجزائرية إلى "حق" فرنسا "في الحفاظ على وجودها" وفي أن تعيش "قَدْرها المتوسطي"<sup>15</sup>.

ثم بدأت تظهر رؤية للمتوسط أقل تمحوراً حول القارة الأوروبية، في أعمال إيمانويل روبلس الذي نشر نصوصاً لجزائريين مسلمين منهم كاتب ياسين ومحمد ديب في مجلة *Forge* التي أسسها سنة 1947، وبدءاً من سنة 1951 في السلسلة المتوسطية لدى منشورات *Seuil*. وقد نشرت هذه الدار كتاب *Le Fils du pauvre* (1954) لمولود فروان ورواية "نجمة" لكاتب ياسين. ولكن، حتى هذه المحاولات في توسيع مفهوم المتوسط ليشمل الثقافات العربية أو الإسلامية، لم يكن ليتخلص من حبال الأبوية. فقد كانت نصوص الكتاب الجزائريين المسلمين تنشر أو يُقدم لها بطريقة سلطوية وكانت تصنف وثائق إثنية تكشف عن عقلية عربية<sup>16</sup>.

بعد حرب الجزائر، اختفى مفهوم المتوسطية الذي ساد بين سنوات الثلاثينيات والخمسينيات الذي ارتبط بالرغبة في إعادة إضفاء الشرعية على الوجود الفرنسي في بلدان المغرب العربي. أما خلال السنوات الممتدة من الستينيات إلى الثمانينيات، فقد كانت فرنسا مشغولة بمكانتها داخل الاتحاد الأوروبي بشكل خاص. ثم عادت فكرة حوض البحر المتوسط للظهور من جديد منذ تسعينيات القرن، على الساحة السياسية والاقتصادية وكذلك على الساحة الثقافية. فكانت هناك مبادرات سياسية عديدة، منها الملئقى المتوسطي (1988-1992) وأحدثها كانت في افتتاح الاتحاد لأجل المتوسط (UPM) سنة 2008 بمبادرة من الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي. وتشهد هذه المبادرات على رغبة فرنسا في أن تلعب دوراً متقدماً في المنطقة. يقول جان روبري هنري يشرح ما يجري إن "أسطورة" وحدة حوض دول المتوسط "عموماً ما يلجأ إليها في أوقات الأزمات... كوسيلة لتجاوز الصراعات والتسامي عنها"<sup>17</sup>.

فما هي الصراعات والتوترات التي يواجهها اليوم البحر المتوسط؟ بإمكاننا الحديث عن العديد من الأمور. من المنطقي التفكير إن فرنسا تسعى إلى إظهار قوتها في حوض المتوسط لموازنة الهيمنة الألمانية على أوروبا، وهي ديناميكية شبيهة بتلك التي رأيناها في ثلاثينيات القرن الماضي. وبحسب Hayète Chérigui، فالدبلوماسية المتوسطية تساهم أيضاً في إخفاء فشل سياسات التعاون مع المستعمرات القديمة ومنها الجزائر وليبيا، وتلاشي مناطق النفوذ الفرنسي في المغرب والمشرق<sup>18</sup>.

إن مهمة الاتحاد من أجل المتوسط، الذي يضم 43 دولة تشمل كافة دول الاتحاد الأوروبي، تنظيف البحر المتوسط ودعم التنمية واستخدام الطاقة البديلة، لا سيما الطاقة الشمسية، وتطوير الاتصالات، وقد أنشأت لذلك الجامعة الأوروبية المتوسطية في سلوفينيا (EMUNI) وهناك مبادرة لإنشاء فرع آخر في المغرب. وإن كانت مسائل الأمن مثل محاربة الإرهاب الدولي ومراقبة الحركات الإسلامية... قد كانت من الأفكار المؤسسة لمشروع الاتحاد، فمن الواضح جداً غياب المواضيع غير المتفق عليها مثل الهجرة وطبيعة الأنظمة السياسية للدول الأعضاء والصراع العربي الإسرائيلي وانضمام تركيا إلى الاتحاد

الأوروبي. والسلطات التركية تُظهر تشككها الشديد حول نقطتين غير معلنتين في المنظمة: الحد من تدفق المهاجرين من دول الجنوب نحو الاتحاد الأوروبي واستبعاد تركيا من مفاوضات الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي الذي يبدي لها في الوقت نفسه وجهاً مختلفاً<sup>19</sup>.

تهتم المشاريع الجديدة حول حوض المتوسط بالمجال الثقافي أيضاً. فكان تأسيس المراكز الجامعية والمجلات والندوات والجوائز الأدبية "المتوسطة"، التي يبدو أنها أنشأت للتأكيد على وجود صبغة ثقافية تجمع بين جنوب فرنسا (وفيه المركز الجامعي المتوسطي، في مدينة نيس، والمجمع المتوسطي للعلوم السياسية... وغيرها) والدول الأوروبية المجاورة وبين المستعمرات القديمة في المغرب والمشرق. فإن كانت بلدان الضفتين متفقتان على هذا التجمع، مثلما يشير إلى ذلك هرزفيلد، فإن تيار المتوسطية ليس مجرد خطاب حول الآخر مثلما كان الاستشراق، بل هي مبادرات تخرج من بلدان المنطقة كافة.

مثال جيد على هذه الديناميكية نجده في جائزة المتوسط التي أنشأها سنة 1984 المركز المتوسطي للآداب في مدينة بيرينينيون. تمنح هذه الجائزة لأفضل رواية مخصصة "للمجال الثقافي بين مختلف البلدان المطلة على البحر المتوسط"<sup>20</sup>. إنما هنا أيضاً لا بد من الإشارة إلى أن الجائزة مخصصة لأفضل رواية متوسطية فرنسية وأن هناك جائزة أخرى، جائزة المتوسط الأجنبية، التي تمنح لأفضل نص حول المتوسط مترجم إلى اللغة الفرنسية! ومثلما رأينا أعلاه، فمفهوم المتوسطية كان ينتقل من حال إلى حال ويختفي ليظهر من جديد بما أنه كان يستخدم استخداماً استراتيجياً من قبل الدول أو الجماعات التي تملك أسباباً لتأكيد أو للتسويق لفكرة وحدة المنطقة أو تعددية العلاقات الوطنية. وفكرة المتوسطية أبعاد علمية. فاستخدام مفهوم حوض المتوسط قليل جداً في بعض العلوم مثل العلوم الاجتماعية والسياسية، لكنه حاضر بكثافة في غيرها مثل الإنسانيات والتاريخ والدراسات الأدبية (بنسبة أقل). ويمكن تفسير هذه الاختلافات جزئياً في استثمار أو عدم استثمار تلك التخصصات في أطر التفاسير الوطنية. إذ يمكن للخطاب المتوسطي، في الواقع، أن يشمل تحليلاً نقدياً للقومية الأكاديمية، وأن يشمل أيضاً " *area studies* " [دراسات مناطقية] تمت أثناء الحرب الباردة. ويبدو أن حوض المتوسط قادر على تجاوز المصاعب بين أوروبا والشرق الأوسط، بين الشمال والجنوب، وهي مصاعب قد أيدتها العلوم السياسية والعلاقات الدولية وعمقتها.

وقد عاد حوض المتوسط منذ تسعينيات القرن الماضي ليصبح مجدداً مفهوماً هاماً في مجال التاريخ. مع ذلك، اصطبغت تلك العودة بطرح أفكار تشكيكية حول الوحدة المتوسطية قديماً وحديثاً. لقد تطرق برغرنيهوردن ونيقولا بوسيل، مؤلفا كتاب *The Corrupting Sea: a Study of Mediterranean History*<sup>21</sup> المثير للجدل، إلى الفكرة القائلة إن المتوسط يشكل منطقة محددة ودافعا

عنها أمام من انتقدوا مفهوم المتوسطية (ومنهم هرزفيلد). فالهوية المتوسطية، بالنسبة إليهما، لا تأت من الجوهر المشترك بل من كثافة تاريخية للتبادلات ووتيرة التغير. فهما يعرفان المتوسط بالتالي من وجهة نظر تجارية ونشاط تجاري. إحدى أكبر الرهانات في الأعمال التاريخية في هذا المجال كانت الاعتراف بأن الضفة الشمالية والضفة الجنوبية للبحر المتوسط تشكلان حيزاً موحداً، دون إنكار وجود الانقسامات والصراعات. وقد صدرت حول الموضوع عدة أعمال تخصصت في تاريخ القرصنة واتخاذ الأسرى في عالم البحر المتوسط. ونشير من بينها إلى كتاب *Captives: Britain, Empire and the World, 1650-1899* لمؤلفته ليندا كوللي<sup>22</sup>، والعديد من المؤلفات لنيل مطر منها *Barbary, 1589-1689*<sup>23</sup> والكتاب المشترك

*Piracy, Slavery and Redemption*<sup>24</sup>، *Captives and Country men: Barbary*

و *Slavery and the American Public, 1785-1816* لمؤلفه لورنس بسكين<sup>25</sup>، و

*Captives and Corsairs: France and Slavery in the Early Modern*

*Mediterranean* لمؤلفه غيلين فايس<sup>26</sup>، و

*Renegade Women: Gender, Identity, and Boundaries in the Early Modern*

*Mediterranean* لمؤلفه إيريك دوسترلر<sup>27</sup>، و

*Christian Slaves, Muslim Masters: White Slavery in the*

*Mediterranean, the Barbary Coast and Italy, 1500-1800* لمؤلفه روبر دافيس<sup>28</sup>، و

*White Slaves, African Masters: An Anthology of American Barbary*

*Captivity Narratives*<sup>29</sup> بإشراف بول بيبيلر، و

*White Women Captives in North Africa: Narratives of*

*Enslavement, 1735-1830* لمؤلفه خالد بكاوي<sup>30</sup>.

وفي استفادة من هذا الاهتمام المتزايد بالموضوع، قامت دار النشر Classiques Garnier

بنشر سلسلة من كتابات قديمة للمؤرخ ميشيل فونتتي وهو تلميذ فرناند بروديل ومتخصص كبير في التجارة

والقرصنة في حوض المتوسط. وقد كان هذا الكتاب وعنوانه *La Méditerranée entre la Croix et*

*le Croissant: navigation, commerce, course et piraterie (XVI<sup>e</sup>-XIX<sup>e</sup> siècle)*<sup>31</sup>، بداية

انطلاقة لسلسلة جديدة من الكتب اسمها "Les Méditerranées". وكان فونتتي من أوائل المؤرخين الذين

كسروا الفكرة القائلة بأن القرصنة وتجارة العبيد كانت حكرًا على القرصنة "البربر" المسلمين. إذ تعطي هذه المؤلفات تفاصيل عن مشاركة أوروبيين مسيحيين في الأمر مثل جمعية فرسان عكا في القدس.

يأتي موضوع القرصنة وتجارة العبيد المتلازمان في مركز الاهتمام التاريخي بحوض المتوسط. إذ تجسد هذه الثنائية خطوط الالتحاق في عالم المتوسط، لكن أيضاً مساميتها أي مختلف أنماط التأويل والاتصالات والترجمة. وتشير المؤرخة ليندا كوللي وغيلين فايس إلى أن مفهوم العبودية قد أصبح من الآن فصاعداً مقترناً بالمعاهدة الأطلسية، وأن ثمة ميل إلى نسيان وجود سياقات أخرى وأشكال أخرى للعبودية. وتُظهر أنه في عالم البحر المتوسط في القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت مفاهيم العبودية والأسر متشابهة نسبياً بين الصفتين. فالوقوع في الأسر الذي كان ينظر إليه كبلاء يصيب المرء، يدخل في إطار الصراع التاريخي بين الصليب والهلال. وقد وُجدت في أوروبا العديد من الجمعيات الدينية المتخصصة في شراء المسيحيين الذين يقعون عبيداً في أيدي العثمانيين.

مع ظهور الاستعباد الاستعماري المؤسس على قواعد عرقية لم تعد القوى العظمى، ومنها فرنسا وبريطانيا العظمى، تستسيغ أن يقع رعاياها في أفريقية ضحية للأسر ثم للبيع كعبيد، فانكبت جاهدة لاجتثاث تلك الظاهرة. تشير ليندا كوللي إلى كلمات الأغنية الوطنية "Rule Britannia" التي كانت منذ سنة 1740 تصدح بالقول " Rule, Britannia! Rule the waves, Britons never will be slaves" [سودي بريطانيا يا سيدة الأمواج سودي، لن يكون أولادك عبيداً أبداً]. ثم كانت مكافحة العبودية البربرية في القرن التاسع عشر سبباً ومبرراً هاماً لأجل غزو إفريقية واستعمارها. فقد تطورت مفاهيم العبودية والأسر منذ القرن الثامن عشر تطوراً ملحوظاً: لقد "هاجرت" في اتجاهات مختلفة. فقد ارتبط المصطلح الأول بالمحيط الأطلسي وارتبط الثاني بعالم حوض المتوسط. مع ذلك تذكر الأعمال التاريخية الحديثة بأنه كان للمصطلحين في البحر المتوسط الدلالة نفسها في بداية العصور الحديثة.

إضافة إلى مسألة التأريخ للعلاقة بين العبودية والأسر وبين الخطاب الأطلسي والخطاب المتوسطي، بوسعنا الإشارة إلى مسألة أخرى تتعلق بالأشكال الحالية للعبودية في البحر المتوسط. بالحديث عن القرصنة والأسر أيام زمان يذكرنا، في بعض النواحي، بالمصطلحات المفتاحية في الخطاب السياسي والثقافي المعاصر: الإرهاب والرهائن. فهاذين المصطلحين، تماماً كمصطلحي القرصان والأسير، باتا الشعار المميز لمنطقة التماس بين المسيحيين والمسلمين، وغالباً ما ينظر إليها من وجهة نظر القوى. وإن كان الحديث عن هذه الثنائية المتوازنة لا يتم عموماً في آن واحد، فمن المؤكد أن مرد ذلك إلى ربط المصطلح الأول بمنطقة البحر المتوسط الجيوسياسية، بينما ارتبط المصطلح الثاني بالشرق الأوسط، ولأن أحدهما يدخل تحت بند التاريخ والآخر تحت بند العلوم السياسية. فالأمر كما يقول



السيد هرزفيلد إن الخطاب العلمي "موجّه": وإنما يتم تطوير المناهج والنظريات انطلاقاً من السياقات التاريخية والجغرافية الخاصة أو وفقاً للمجالات المفضلة<sup>32</sup>. ومثلما أشرنا أعلاه، لم يهتم المتخصصون بالعلوم السياسية بمفهوم المتوسطية. لكنهم من ناحية أخرى أبدوا اهتماماً قليلاً بشمال إفريقيا التي يعدوها منطقة خارج الشرق الأوسط وصراعاته المشكّلة. ولم يربط المتخصصون بالعلوم السياسية في خطباتهم بين المغرب العربي وبين المشرق إلا حديثاً جداً، أي بعد التقلبات السياسية التي تلت "الربيع العربي"<sup>33</sup>.

مع ذلك، فقد لجأ الكثيرون من المؤرخين إلى تبني مفهوم المتوسطية للالتفاف على بؤرة التوترات في الشرق الأوسط لتجنب إسقاط هذه التناقضات على الماضي. فعلى أي مقياس إذن يستند القرار بالاهتمام بحوض المتوسط على "أسطورة المصالحة" وعلى "نفي رمزي للصراعات"، بحسب تعبير جان روبيير هنري<sup>34</sup>؟ ومن ناحية أخرى، ما المغزى من الاهتمام بمصير الأسرى والعبيد (الذين يمكن بيعهم وشراؤهم) وبمغامرات القراصنة (الذين يمكن استمالتهم) في زمن الإرهاب والرهائن؟ فإن لم يكن ثمة جواباً عاماً على هذه الأسئلة، فهي تشير مع ذلك إلى أهمية الاعتراف ليس فقط بالرهانات السياسية ذات المنحى الجغرافي مثل البحر المتوسط والشرق الأوسط، بل كذلك علاقة الأمر بالعلوم الإنسانية وحساسياتها حول الموضوع.

## التعليقات:

- 1- الاستشراق، نيويورك، Vintage Books، 1978.
- 2- مايكل هرزفيلد، «The Horns of the Mediterraneanist Dilemma»، American Ethnologist، 11، 1984، ص. 439-454.
- 3- جوليا كلانسي سميث، *Mediterraneans : North Africa and Europe in an Age of Migration, c. 1800-1900*، بيركلي، منشورات جامعة كاليفورنيا، 2011، ص. 10.
- 4- « Practical Mediterraneanism : Excuses for Everything from Epistemology to Eating »، في Rethinking the Mediterranean، نشر وليام هاريس، أكسفورد، منشورات جامعة أكسفورد، 2005، ص. 45-63.
- 5- يشير هرزفيلد إلى إن فرنسا، بالرغم من ساحليها المهم المطل على البحر المتوسط، إلا أنها لا تبرز إطلاقاً في نصوص الإثنوغرافيا الكلاسيكية المتوسطة: إذ غالباً ما يتم تصنيفها مع "دول الشمال"، "الامبريالية، العالمية والعقلانية" ( Practical Mediterraneans، ص. 60). وكن، حتى إن كان هذا الواقع غير صحيح، إلا إنه لا يأخذ بعين الاعتبار العدد الكبير من الخطابات التي تتحدث عن فرنسا المتوسطة أو التي تصف الجزائر المستعمرة كامتداد متوسطي.
- 6- فرناند بروديل، *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*، باريس، منشورات كولين، 1949.
- 7- باريس، منشورات Seuil، 1966. تستند هذه الدراسة إلى دراسة ميدانية قام بها تيليون في الجزائر قبل الحرب العالمية الثانية.
- 8- باريس، منشورات Colin، ص. 215.
- 9- المصدر نفسه.
- 10- انظر Héliotrope (1928)، و Jeunesse de la Méditerranée (1935) و Sel de mer (1936).
- 11- لويس برتراند، *Le Livre de la Méditerranée*، باريس، منشورات Plon، 1923.
- 12- غبريل أوديسيو، « L'Algérie littéraire »، في L'Encyclopédie coloniale et maritime، باريس، 1946، المجلد 2، ص. 247. انظر كذلك التحليلات التفصيلية لكتابات أوديسيو وكامو وروبلس حول المتوسط، بقلم Seth Graebner، في *History's Place : Nostalgia and the City in French Algerian Literature*، Lanham، منشورات Lexington Books، 2007، ص. 191-251.
- 13- انظر حول كامو والمتوسط، Neil Foxlee، *Albert Camus's « The New Mediterranean Culture » : a Text and its Contexts*، نيويورك، منشورات Peter Lang، 2010.
- 14- «Algérie 1958»، Actuelles III, chroniques algériennes (1939-1958)، باريس، منشورات غاليمارد، 1958.
- 15- خطاب موجه لمجلس الشعب، مجلة لوموند، 26 تشرين ثاني، 1945.

- 16- Le Fils du pauvre [ابن الفقير]، تم نشره أولاً سنة 1950، ثم أعيد نشره عند Seuil سنة 1954، بعد أن حذفت منه فقرة تتحدث عن مرحلة فيشي في الجزائر. وقد شجع هذا الحذف على القراءة الإثنية للنص. أما رواية نجمة، فقد نشرت مع مقدمة تشير إلى الصفة العربية بامتياز لأنيتها الروائية.
- 17- جان رويبر هنري، « La France et le mythe méditerranéen » dans La Méditerranée en question : conflits et interdépendances، النشر تحت إشراف حبيب المالكي، الدار البيضاء، مؤسسة الملك عبد العزيز، باريس، CNRS، 1991، ص. 197.
- 18- La politique méditerranéenne de la France : entre diplomatie collective et leadership منشورات L'Harmattan، 1997، ص. 10.
- 19- انظر : [http://fr.wikipedia.org/wiki/Union\\_pour\\_la\\_Méditerranée](http://fr.wikipedia.org/wiki/Union_pour_la_Méditerranée).
- 20- انظر حول جائزة المتوسط: <http://www.prix-litteraires.net/prix/39>، و [prix-mediterranee.html](http://prix-mediterranee.html).
- 21- مالدن، ماساتسوشيتس، Blackwell، 2000.
- 22- نيويورك، منشورات Knopf، 2004.
- 23- غينسفيل، منشورات جامعة فلوريدا، 2005.
- 24- نشر تحت إشراف دانييل فيتكوس، نيويورك، منشورات جامعة كولومبيا، 2001.
- 25- بالتيمور، منشورات جامعة جون هوبكينز، 2009.
- 26- بالتيمور، منشورات جامعة جون هوبكينز، 2011.
- 27- شيكاغو، منشورات جامعة شيكاغو، 1999.
- 28- شيكاغو، منشورات جامعة شيكاغو، 1999.
- 29- نيويورك، Palgrave Macmillan، 2010.
- 30- باريس، Classiques Garnier، 2010.
- 31- هرزفيلد، « PracticalMediterraneanism »، ص. 47.
- 32- انظر على سبيل المثال كتاب HamitBozarslan، *Sociologie politique du Moyen-Orient*، باريس، منشورات La Découverte، 2011، الذي فيه محاولة لتوسيع مصطلح الشرق الأوسط ليشمل باكستان وأفغانستان وشمال أفريقيا، وغيرها.
- 33- بحسب Bozarslan، القاسم المشترك بين هذه الأمم تاريخياً هو الحكومات الاستبدادية، وعلاقات الصراع مع الغرب، والحركات الإسلامية.
- 34- هنري، مصدر سابق.